

السلطان ياووز سليم خان

السلطان الذي عبر الصحارى



Joylino

السلطان ياووز سليم خان

السلطان الذي عبر الصحارى

كانت الرياح تهب بقوة على سواحل طرابزون. وكانت الأمواج ترتطم بالصخور، وحبال السفن في الميناء تشتد. وبينما كان الأمير سليم يقرأ رسالة أمامه، دخل رسول إلى غرفته. كان يحمل أخباراً جديدة من المناطق الحدودية. وضع سليم الرسالة على الطاولة، وأصغى إلى الرجل باهتمام.

لم يكن قد أصبح سلطاناً بعد. لكنه كان مسؤولاً في المدينة التي يحكمها عن أمن الطرق، وأحوال القلاع، وحاجات الناس. كان البحر أمامه، والجبال خلفه. وكان يريد أن يعرف ما يجري وراء تلك الجبال. وحين انتهى الرسول من حديثه، بدأ سليم يطرح الأسئلة. فلم يكن سماع خبر يكفيه؛ بل كان لا بد من فهمه والتفكير فيه، والتحرك عند الحاجة.



وُلد سليم في أماسيا. كان أبوه السلطان بايزيد الثاني، وجدّه السلطان محمد الفاتح الذي فتح إسطنبول. تلقّى في طفولته الدروس على أيدي معلّميه، ونشأ بين الكتب. وكان كل كتاب يفتح أمامه يفتح له باباً إلى عالم آخر. ولم يترك القراءة حين كبر. كان يهتم بالتاريخ ويكتب الشعر. وبينما كان يتعلم شؤون الحكم، كان ينشغل أيضاً بالكلمات. وقد علّمته سنواته في طرابزون دروساً لا يجدها في الكتب: مقارنة الأخبار، والاستماع إلى الناس، واتخاذ القرارات في وجه الصعوبات... وقبل أن يقود جيوشاً كبيرة بعد زمن طويل، تعلم الأمير أولاً كيف يتحمل مسؤولية مدينة.



مرّت السنوات. وبعد صراع شاق على العرش، أصبح سليم سلطان الدولة العثمانية عام ١٥١٢. ولم يعد اهتمامه يقتصر على الأخبار القادمة من طرابزون. فقد صارت الرسائل تصله من جميع أنحاء دولة كبيرة، وكان الناس ينتظرون قراراته.

كان الناس يلقّبونه بـ«ياووز» لشجاعته وصرامة طبعه وعزيمته. وحين تولّى الحكم، كانت هناك خلافات خطيرة مع الدولة الصفوية في الشرق. جمع ياووز قادته ورجال الدولة، واستمع إلى المسائل المطروحة أمامه، وطلب البدء بالاستعدادات. وسرعان ما بدأ إحصاء اللوازم في المخازن، وتحديد الاحتياجات على الطرق. كان يعلم أن كل قرار يتخذه سيؤثر في آلاف الناس الذين سينطلقون معه.



في عام ١٥١٤، انطلق الجيش نحو الشرق. عبر الجبال وقطع طرقاً طويلة. ومرّت أيام صعب فيها العثور على الطعام. ومع ازدياد التعب، ازداد التملل بين الجنود. حاول ياووز أن يحافظ على تماسك جيشه في هذه الرحلة الشاقة.

وفي ٢٣ أغسطس، التقوا بجيش الشاه إسماعيل في سهل جالديران. اتخذ الجنود العثمانيون مواقعهم، وجهزت المدافع والوحدات المسلحة بالبنادق. وفي نهاية المعركة، حقق جيش ياووز نصراً كبيراً. وكان لتنظيم الجنود والأسلحة التي استخدموها أثر في هذا النجاح، مثلما كان لشجاعتهم. لقد قاد ياووز جيشه إلى نصر مهم في نهاية المسير الطويل. لكن خسائر الحرب تركت، إلى جانب النصر، حزناً ثقيلاً أيضاً.



بعد عامين، كان ياووز يقود حملة كبيرة من جديد. وهذه المرة، امتد الطريق جنوباً. فقد تحولت الخلافات بين الدولة العثمانية ودولة المماليك إلى حرب. وبينما كان الجنود يقطعون طرقاً جديدة، كانت الرسل تنقل بين الطرفين.

وفي عام ١٥١٦، التقى الجيشان في مرج دابق قرب حلب. كان جيش المماليك معروفاً بفرسانه الأقوياء. ونظم ياووز قواته بعناية أيضاً. وانتهى القتال الشديد بنصر عثماني، وخضع جزء كبير من سوريا للحكم العثماني. لكن الحملة لم تنته. ففي الجنوب كانت مصر. ولكي يصل ياووز إليها مع جيشه، كان عليه أن يجتاز أيضاً طريق الصحراء الممتد أمامه.



بُسُطت خريطة في خيمة ياووز. كان القادة يتحدثون عن الطريق الممتد إلى مصر. سأل أحدهم: «كيف نحمل الماء والطعام لهذا العدد الكبير من الناس؟» وتحدث آخر عن صعوبة التقدم بأحمال ثقيلة في الأرض الرملية.

استمع ياووز إلى الأسئلة. فلم يكن بالإمكان الانطلاق قبل معرفة أخطار الطريق. أرسل الأدلاء، وحددت أماكن المبيت مسبقاً. وجهزت أوعية الماء والأحمال. كما خففت الأمطار التي هطلت في تلك الأيام من خطر العطش. كان قرار ياووز الجريء يقترن باستعداد دقيق. ولكي يجتازوا فعلاً المسار المرسوم على الخريطة، كان لا بد من التفكير فيما سيفعل عند كل محطة.



سلك الجيش الطريق الممتد عبر سيناء إلى مصر. كانت أمامه أرض مكشوفة، وطرق صخرية، ومساحات رملية. وبينما كانت القافلة الطويلة تتقدم، دارت العجلات، وسمع رنين أجراس دواب الحمل. وكانت كل استراحة فرصة لاستعادة القوة قبل المسير التالي.

مدّ جندي وعاء الماء إلى رفيقه بجانبه. وشدّ آخر رباط حمل كان قد ارتخى. كان الأدلاء يرشدونهم إلى الطريق، والمسؤولون يتفقدون من تأخروا عن الركب. وكان ياووز يشارك جيشه الرحلة نفسها. فالأماكن التي نظروا إليها على الخريطة قبل أيام، أصبحت الآن تحت أقدامهم. وبالأستعداد والتحمل والعمل معاً، كانوا يجتازون طريق الصحراء المؤدي إلى مصر، خطوة خطوة.



بعد اجتياز طريق الصحراء، اقتربوا من القاهرة. كان سلطان المماليك طومان باي قد أعدّ دفاعاً قوياً في الريدانية. ووجهت المدافع نحو الجهة التي ظن أن الجيش العثماني سيأتي منها. وكان التقدم مباشرة قد يعرض جنود ياووز لخطر كبير.

درس ياووز وقادته طريقاً آخر. كان الجيش سيلتف من الجانب بدلاً من التقدم مباشرة في مواجهة الدفاعات. غيرت الوحدات اتجاهها، ولم يأت الهجوم بالصورة التي توقعها المماليك. وفي نهاية القتال الذي بدأ يوم ٢٢ يناير ١٥١٧، انتصر الجيش العثماني. وقد أظهر ياووز شجاعته هذه المرة بحسن تقديره لساحة المعركة، وتوجيه قواته للتقدم من جهة مختلفة.



فتح انتصار الريدانية الطريق إلى مصر. لكن القتال في القاهرة استمر بعض الوقت. وفي النهاية، سقطت دولة المماليك ودخلت مصر تحت الحكم العثماني. وبعد حملته الطويلة، كان ياووز على ضفة النيل. كان بعيداً جداً عن أمواج طرابزون، وفي عالم مختلف تماماً.

كانت تنتظره الآن مسؤوليات جديدة. فلا بد من تنظيم إدارة المدن الكبيرة، والاهتمام بالأراضي الجديدة. وهنا استقبل أيضاً المندوب القادم من مكة. وتحمل مسؤولية حماية مكة والمدينة. وعرف بلقب «خادم الحرمين»، وهو لقب يعبر عن خدمة هاتين المدينتين المقدستين. فالانتصارات التي حققها زادت أيضاً العبء الذي يحمله.



عاد ياووز إلى إسطنبول بعد حملة استمرت أكثر من عامين. أصبحت وراءه طرق الجبال، وساحات المعارك، ورحلات عبور الصحارى. لكن العمل لم يكن ينتهي في القصر أيضاً. كانت الرسائل تصل، والسفراء ينتظرون، والاستعدادات الجديدة تجري.

واصل القراءة ولقاء العلماء والاهتمام بالشعر. فالحاكم الذي اشتهر بسيفه كان أيضاً إنساناً يفتح كتاباً وينشغل بالكلمات. وفي عام ١٥٢٠، مرض وتوفي قرب تشورلو. وتولى ابنه سليمان الحكم من بعده. وهكذا انتهى حكم ياووز الذي زاد قليلاً على ثماني سنوات. وقد تركت انتصاراته الكبيرة والتغييرات التي أحدثها في حدود الدولة خلال هذه المدة القصيرة أثراً عميقاً في التاريخ العثماني.



تخيّل خريطة: على أحد جانبيها سواحل طرابزون، وعلى الجانب الآخر سهل جالديران البعيد. وأبعد نحو الجنوب حلب، ثم طرق الصحراء والنيل... كانت حياة ياووز رحلة كبيرة تمتد بين هذه الأماكن. وكان وراء كل خط على الخريطة استعدادات وقرارات صعبة وجهود آلاف الناس.

محت الرياح مع مرور الزمن الآثار التي تركها الجيش في سيناء. طُويت الخيام، وسلكت القوافل طرقاً أخرى. لكن تلك الرحلة لم تنسَ. لأن الحاكم الذي قادها لم يكتفِ بالوصول إلى أماكن بعيدة؛ بل غير بقراراته مسار التاريخ.

ذلك السلطان الذي عبر الجبال والصحارى، ظل حاضراً في التاريخ باسم واحد: السلطان ياووز سليم خان.

